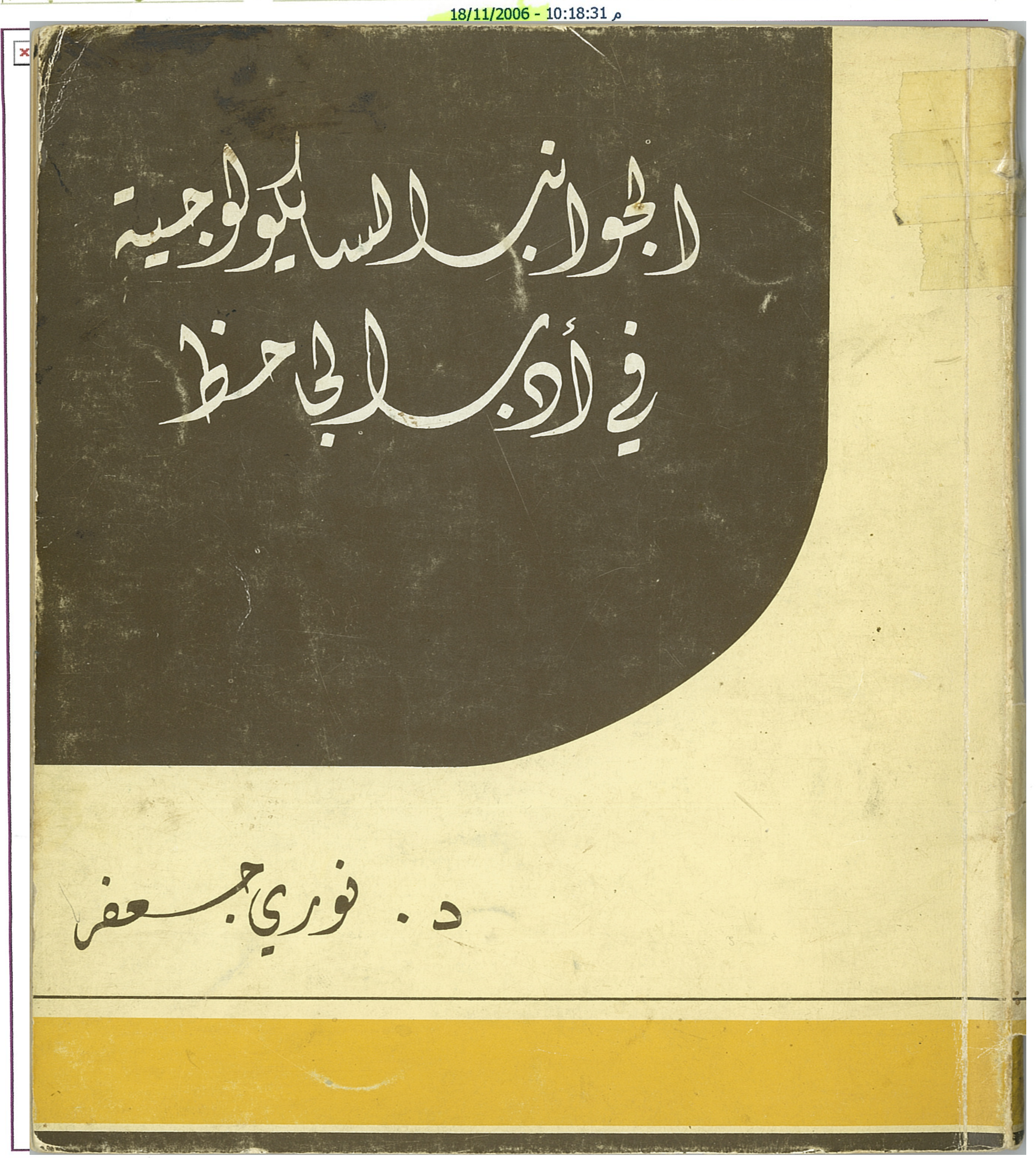


نقد الادب في المنظور الإجتماعي والتربوي
نوري جعفر انسكلوبيديا منفتحة على التنوع

ياسر جاسم قاسم
بغداد

ونحن في الذكرى الخامسة عشرة لرحيل الدكتور الموسوعي نوري جعفر رحمه الله تتوارد الأفكار التي أوردها في مشاريعه الفكرية التي أسهمت في بناء ثقافة موسوعية متنوعة حيث تاتي مذكرة بموسوعية وشمولية فكر هذا الرجل ولكن بتخصصيه ذات فكر منفتح على العموم،أن فكر هذا الرجل استطاع أن يلم الكثير من العلوم على اختلاف مصادرها واهتماماتها ليجعلها علوما تصب في الجانب الإنساني ومنها عده العلوم الطبيعية تكمل الأدب والفنون وأن الشعر والقصة وغيرهما مكملان للرياضيات والفيزياء وهذه المقاربة الفكرية الغريبة من نوعها أنفرد بها الدكتور نورى جعفر وجعل لها تعليلات مهمة منها ما يقوله من أن الأدب والفن إذا أحسن تدريسهما وتجسيد

بمسؤولياته الاجتماعية إزاء مجتمعه والملتزم بقضايا أمته وعصره والساعي لخدمة مصلحته الخاصة وهذا يؤدي في الشوط البعيد إلى تقدم المجتمع ثقافيا وإنسانيا بالإضافة الى التقدم النظري والتكنولوجي اللاحق وهنا تتجلى الرابطة العضوية بين الأدب والفن من جهة والعلوم الطبيعية من جهة أخرى والرابطة العضوية في فكر الدكتور نوري جعفر بين العلوم الطبيعية والأدب والفنون تتجلى في أمرين أولهما اختلاف أسلوب البحث المتبع في المحتوى أوالمضمون والثاني في كون العلم دون أناس وبمشاعر إنسانية قد لا يكون في صالح المجتمع وربما لا يؤدي إلى تقدمه ، وبالتالي فأن مطالب الدكتور نوري جعفر تتلخص في ضرورة تدريس الأدب والفنون بموازاة عملية تدريس العلوم الطبيعية داخل المدارس وأن لا يغض الطرف عن تدريس الأدب والاهتمام بالعلوم الطبيعية فقط وهوما يحصل اليوم في مجتمعاتنا حيث يتضح الربط الواضح بين العلمين على الرغم من الاختلاف المنهجي والبحثي كما يؤكد الدكتور نوري جعفر على حاجة الجيل الجديد إلى التزود بالمعرفة الإنسانية بالأدب والفن بصورة خاصة ولابد للفرد من الإلمام الواضح العميق بتأريخ أمته (.وبخاصة جوانبه التقدمية) ولابد له أيضا من الإلمام بلغته القومية وبالجوانب التقدمية في الأدب والفن العالمي الراهن كما يعلل الدكتور جعفر سبب الاهتمام بالفنون والآداب لأعداد الأجيال بقوله :- أنه لوحظ عبر التأريخ أن الأدب والفنون قديمة قدم الإنسان على سطح الأرض لأنها أهم وسائل الاتصال بين الناس وأقدم أدوات التعبير عن الذات وعن المشاعر الإيجابية والسلبية إزاء الأحداث ويؤكد الدكتور نوري جعفر أن للتربية الفنية والأدبية أثرا عميقا في تكوين شخصية الفرد منذ طفولته المبكرة لأنها تصقل مشاعره وتهذب ذوقه وتنمي خياله وتساعد على نشؤء قدرته على الابتكار وتغرس في نفسه النظرة الفنية الجمالية للطبيعة الحية والجامدة ويحدد الدكتور نوري جعفر مستويات تعليم الأدب والفنون وتعلمه في المرحلة الدراسية الأولى بعدة نقاط منها:-

1- الحد الادنى المشترك الموجود ولدى جميع الأفراد الأسوياء وهنا معناه أن التلميذ قادر على تذوق الأدب والفنون ؟ويتقبلهما كما يتقبل التأريخ والجغرافية وغيرهما ولكن نرى الاهتمام ينصب على تعلم الدروس هذه وترك الآداب والفنون وعدم الاهتمام بهما أن للعامل الفسلجي الوراثي المهم في هذه الناحية هومرونة الدماغ في هذه المرحلة من العمر وهذه المرونة يقول عنها الدكتور بأنها تنحجز إذا لم يهتم بها على نحوأفضل .

2- مستوى تعلم الآداب والفنون لأغراض مهنية صرف كتعلم التأريخ والجغرافية.

3- مستوى الأصالة والأبتكار الفني والأدبي وهذا يستلزم بالطبع مزايا فطرية خاصة ينفرد بها بعض الناس دون غيرهم يسميها الدكتور نوري بالقدرات العقلية الخاصة ،ويفلسفها في ضوء علم النفس كما يلي :- حيث يتفق علماء النفس على أن هذه القدرات فطرية أوموروثة بايولوجيا ولكن تفسر في ضوء مجموعتين تفترض الأولى أن تلك القدرات لا جسمية ولكنها موجودة داخل الجسم ويرتبط اصحاب هذه المجموعة بنظرية الذكاء الفطري ، أما المجموعة الثانية فتفترض القدرات العقلية الخاصة امكانات فسلجية مخية من حيث الأساس الجسمي ومن جهة أخرى تفترض أيضا أن المحتوى السايكلوجي لتلك الأمكانات المخية بيئيا:بيئي ألأصل اواجتماعي المنشأ يكتسبه الفرد من مجرى حياته ويرتفع بارتفاع المستوى الثقافي والعصر الذي يعيش فيه بمعنى أدق فأن نوري جعفر يريد أن يقول أن الإمكانات المخية وان كانت شرطا ضروريا لنشوء الأديب أوالفنان الأصيل ألا أنها وحدها لا تكفي ،كما أن البيئة الأدبية والفنية في حد ذاتها غير كافية لتكوين الأديب أوالفنان الأصيل ، وخلاصة هذه الفكرة أن الدكتور نوري جعفر يود أن يؤكد أن التربية الفنية والأدبية التي يدعوا إليها لا تستلزم بالضرورة أن يمتلك المتعلم قدرات فطرية خاصة كما لا تستلزم بالضرورة أن يصبح المتعلم بعد ذلك أديبا كبيرا أوفنانا محترفا تماما مثل تعلمه لمادة التأريخ لا تستلزم منه أن يكون مؤرخا فيما بعد بل تعطيه بعدا إنسانيا شاملا كما لتعلم الأدب قدرة فائقة على التأثير من الناحية السيكولوجية أكثر من أي موضوع أخر لما له من بالغ الأثر في تهذيب المشاعر وتكوين المثل الأخلاقية العليا والمواقف الوطنية الإنسانية النبيلة

العلاقة بين ألأدب والفن

وبالنتيجة فأن هذا الارتباط الذي يريد التأكيد عليه يصب في مسألة مهمة الآ وهي العلاقة بين ألأدب والفن ومطامح الجماهير وهوالذي يؤدي إلى الدعوة لجعل الأدب في متناول الجمهور مع العلم أن هذه القضية معقدة وشاملة فالأديب يرمي باللوم على الجمهور لعدم تتبعه والجمهور يرمي باللوم على الأديب للابتعاد عن الواقعية ومع ذلك يقول الدكتور نوري جعفر بأنه مازالت الجماهير في المجتمعات النامية بعيدة عن تذوق الأدب والفن والتي مازال أرباب الأدب والفن ينظرون إليها النظرة التقليدية الإقطاعية والحالة التي يريد ان ينميها الدكتور نوري جعفر لحل هذه الأزمة هي ابتداء من مرحلة الطفولة والتلمذة حيث ينغرس في الفرد حبه للأدب والفن كما ينبغي قيام عملية مزدوجة يتصل احد طرفيها بإعادة صوغ أرباب الفن والأدب من جهة ويتصل جانبها الثاني برفع مستوى ثقافة الجماهير ويعلق الدكتور نوري على هذه المسألة قائلا (برأينا إن جوهر مبدأ الالتزام بالأدب والفن :الالتزام بقضايا المجتمع والأمة والعصر عندئذ ينتصر الأديب والفنان في المجتمع مع احتفاظه بمقوماته الفردية الايجابية المميزة التي ينفرد بها) أي بمعنى آخر أن الأدب يخدم قضايا أمته مع بقاء ما يتميز به من أدب ملتزم به وهذه نظرة جديدة يطرحها الدكتورنوري جعفر . وبالانتقال إلى أطروحة فكرية أخرى من أطروحات

الدكتور جعفر حيث كتب كثيرا في هذا المجال ومنها كتابه (سايكولوجية أدب الجاحظ) وهذه أطروحة جديدة طرحها الدكتور نوري جعفر بخصوص البحث في المجالات التربوية والسايكلوجية في التراث العربي والإسلامي والذي علق الدكتور نوري جعفر على هذه المسألة قائلا:

(أن التراث الفكري العربي في مجال التربية وعلم النفس جاء منثورا وعرضيا ومتباعدا في مصادر شتى تبحث في موضوعات فلسفية أوطبية وهذا يجعل متعذرا على الباحث أن يلم بدراسته). ولكن على الرغم من ذلك كان للدكتور نوري جعفر رأي بارز فيها كما ركز المفكر نوري جعفر على مفهوم مهم الا وهو(تقدير الأهمية الاجتماعية الايدولوجية). للأديب من ناحية محتوى أدبه أومضمونه ومن ناحية الجانب الفني اوالجمالي لاسلوب تعبيره وبراعته اللغوية من ناحية أناقة الألفاظ وغزارتها حيث يشخص الدكتور نوري جعفر ثلاثة عوامل أساسية للتعامل مع هذه الناحية ويجعل هذه العوامل هي ألأداة الفاعلة لتقدير الأهمية الاجتماعية والأيدلوجية للأديب .أن تعبير الدكتور نوري جعفر الذي يخص مطالبته أن تكون دراسته موضع تقص وتحقيق وتبين يدلك على قوة شخصيته وقوة إدراكه للأمور كما انه يدلك على موضوعيته في الطرح فقد تبين عدم جدوى رأيه في وقت لاحق وهذا يذكرني بمسالة مهمة ألا وهي الآراء التي تقال في زمن معين قد يتبين عدم جدواها علمياً في زمن آخر ومثال على ذلك ما تناوله الدكتور علي الوردي في كتابه خوارق اللاشعور من تفسيرات للظواهر الباراسايكولوجية والتي حددها بمسببات إشعاعية كهرومغناطيسية تبين عدم صحة هذا الرأي فيما بعد حيث تبين أن مسالة التخاطر التي هي احد الظواهر الباراسايكولوجية لا تمنعه حواجز مهما كانت ويسري مفعوله حتى داخل غرفة فاراداي وقد أجرى التجربة فاسيليف على فتاة داخل غرفة تمنع مرور الموجات الكهرومغناطيسية وحاول احد الباحثين وهوخارج الغرفة الإيحاء للفتاة بالنوم داخل الغرفة فنامت مما يعني إن التخاطر وطاقة الفكر ليست ذات طبيعة مادية فيزيائية معروفة في حين كانت مرتكزات الدكتور الوردي تقوم على التفسير الظواهر الباراسايكولوجية وفق منطلقات مادية بحت.

الهوة بين الأديب والمجتمع

وهكذا فهنا كمثال بسيط على صحة رأي الدكتور نوري فيما يخص مراجعة كتاباته وأفكاره وبالرجوع الى اراء الدكتور نوري التي تخص الأهمية الاجتماعية الفاعلة التي يجب إن يحتلها الأديب داخل المجتمع فالأديب يتخذ المواقف الخاصة التي تكون مقبولة داخل المجتمع وينظر إلى الواقع الاقتصادي والسياسي وغيره من مراحل المجتمع هذه الصلة التي يحاول الدكتور نوري جعفر إيجادها بين الأدب والمجتمع ابتداءً من نظريته المعروفة بضرورة إن يكون لتدريس الأدب حضور واسع في المدارس الابتدائية والإعدادية كما تناولته في بداية هذا البحث فكذلك يستمر الأدب داخل المجتمع بالتحقق وهكذا يحقق مراميه الأساسية التي تعالج المجتمعات من أزماتها وهذه هي المشكلة التي دائما تثار لدى الأدباء والكتاب فيتساءلون هل أن الهوة بين الأديب والمجتمع سببها المجتمع أم الأديب وهكذا يضع لها الأدباء تفسيرات عديدة في حين خاض بها الدكتور نوري جعفر وجعل لها مراحل كي يكون الأدب متواصلاً مع المجتمع وأبنائه دون إن يفقد الأدب خصوصياته ولونأخذ تناول الدكتور لتراث آخر من التراث الإسلامي ألا وهومقامات الحريري حيث كما قلنا يسلط الأضواء على الجوانب الحاضرة من هذا التراث فيصف الدكتور نوري جعفر بأن الحريري في مقاماته كان مفتونا بالحركة الصاعدة الديناميكية وقد أحتل التنقل الزماني والمكاني مركزا مرموقا في مقاماته كما كان الحريري مولعا أيضاً بتوجيه تلك الحركة الصاعدة الحيوية المتطورة المتعددة الأشكال التي تظهر في سلوك الحارث بن همام وزميله أبي زيد السروجي والسيطرة عليها في تفاصيلها وفي مجراها العام وقد ظهر الإنسان أثناءها (ممثلا بالحارث بن همام تارة وبأبي زيد السروجي تارة أخرى) مع تناقض السلوك بين الشر والخير وبين الواقع الفاسد الذي يعبر عنه السروجي وبين ما ينبغي أن تكون الحياة عليه كما يبدوذلك عند الحارث بن همام وهذا يعني بعبارة أخرى أن الحريري الذي تقمص شخصية الحارث بن همام كان يسعى لجعل الإنسان يحتل مكانته المرموقة اللائقة به ويسعى لاستئصال مفاسد المجتمع التي تبدومجسدة في سلوك أبي زيد السروجي _ وهنا يعلق الدكتور نوري جعفر بان الحريري كان منغمراً كل الانغمار في أبراز الرابطة العضوية بين مطمح الفرد نحوالتحرر والانعتاق والتقدم وبين الواقع الفاسد الذي يعيش فيه وهذا يعني إن الحريري كان مولعا إلى درجة الإفراط بالحركة الديناميكية الصاعدة للحياة والمجتمع على حد تعبير الدكتور نوري جعفر ولكني اتساءل عن مسالة شديدة الأهمية ألا وهي أن الأفكار التي طرحت من خلال مقامات الحريري تعد من الفكر اليوتوبي الخالص كون الشخصيات التي وصفت في المقامات هي شخصيات مفترضة والحوادث كذلك فهي أمور مفترضة غير واقعية أراد من خلالها الحريري معالجة الواقع في مقاماته لكن الدكتور نوري جعفر لم يشر إلى مسألة مهمة في هذا المجال ألا وهي أن مقامات الحريري تدخل في الفكر اليوتوبي ومثالها في ذلك جمهورية أفلاطون والمدينة الفاضلة للفارابي وأن اختلفت الرؤى والأفكار والزمكان في هذا المجال ولا نعرف لماذا لم يعد الدكتور نوري جعفر أن المقامات من الفكر اليوتوبي مع التاكيد ان الدكتور نوري جعفر لم يؤكد مسالة الفكر اليوتوبي ليس فقط في تناوله لمسالة مقامات الحريري بل حتى لمسالة المجتمع المنشود من خلال اسس التربية حيث يذكر ما نصه في هذا المجال :وبقدر ما يتعلق الامر بملامح المجتمع

جميع الاثار السلبية التي تعوق نموالمواطنين جميعا نموا متكاملا فرديا واجتماعيا علميا وفنيا جماليا على حد سواء) وانا اتساءل واقول هل ذا الكلام سوى مفاهيم تخيلية يطمح اي انسان ان يراها في المجتمع ولكن الدكتور نوري جعفر لم يذكر هذه المسالة ولم يبين ان ما يقوله ما هوالا فكر يوتوبي بحاجة الى تحقيق ولكن قد نستطيع ان نحمل المفكر نوري جعفر على محمل اخر الا وهوانه ضد الفكر التخيلي الحالم الى درجة انه يريد ان يجعل ما يراه الغير فكرا يوتوبيا يجعله واقعا ملموسا في المدى القريب اوالبعيد على الرغم من صعوبات التنفيذ حيث نستطيع تلمس هذا المعنى من خلال ما يقوله مكملا ما ورد عنده في الفقرة اعلاه : ولتحقيق ذلك في مداه البعيد لا بد من العمل يوما بيوم بمثابرة وتصميم وبالعمل الجماعي البناء على استئصال النزعات الفردية السلبية وتشجيع كل ما من شانه ان يوصلنا الى تحقيق ما نصبواليه باقصر طريق وباقل جهد وعلى افضل وجه) (نوري جعفر ، مقال التربية والمجتمع المنشود ، مجلة افاق عربية ، العدد 7،اذار ، 1976م) ولكن نرى ان هذه المجالات ايضا لا تكفي لاخراج ما يطمح ان يراه نوري جعفر في مجتمعه من دائرة التخيلية واليوتوبية ، كذلك يبين نوري جعفر أن في مقامات الحريري تتجلى النزعة الإنسانية متمثلة بالبطل الحارث بن همام الذي كان يسعى دائما الى التغلب على مفاسد المجتمع المتجسدة في سلوك أبي زيد السروجي ثم يضع الدكتور نوري جعفر صور المقارنة بين الحريري وبين أدباء عصر النهضة الأوربية وفنانيها في ايطاليا بصورة خاصة وبالدرجة الأولى أثناء القرون الوسطى مع مراعاة اختلاف المميزات المحلية الخاصة ويشابه الدكتور نوري جعفر ما ورد في مقامات الحريري بما ورد في كتاب الأمير لماكيافيللي بصدد الأوضاع المحلية في الولايات الإيطالية وبخاصة في ناحية الصراع بين دعاة الحق والعدالة الاجتماعية وبين الغارقين في الرذيلة ويقارن الدكتور نوري جعفر حتى الحالة اللغوية التي تجسدت في مقامات الحريري حيث يصف الخمر على لسان الحارث وصفاً دقيقاً كأنه قد تعاطاها مسبقاً

ويعلق نوري جعفر بان الحريري كان مفتونا بالتعابير اللغوية الأنيقة والألفاظ الجميلة وبالوصف الأدبي وهنا يذكر الدكتور نوري جعفر رايالليً الكاتب الفرنسي الذي وصف النبيذ واطنب في إظهار محاسنه واطراه دون أن يذوق طعمه على ما يقوله بلزاك .

وهكذا نرى هذه الجوانب التي أثارها الدكتور نوري جعفر في مسالة تناوله للتراث حيث سلط علم النفس والاجتماع واللسانيات في تناوله لهُ كي يأخذ المنتج منه ويترك اللامنتج وهذا ما طالب به اركون حين أراد أن يفسر التاريخ وفق منظومة العلوم الإنسانية والاعتناء بتدريس علوم الإنسان والمجتمع وعلم اللسانيات كمثال على هذه العلوم.

